



الثورة الفرنسية



الثورة الأميركية

هذه الأفكار التحذيرية (التصحيفية) لم تمنع تقدم «حقوق الإنسان» استناداً على الوثائق الثلاث البريطانية الأميركية الفرنسية. فالعالم فعلاً تغير وبدأ الفكر المعاصر يشق طريقه تاركاً تأثيره على مختلف الحقول والعهود. ففي أميركا قام وليام لويد غارسون (1805-1879) بكتابة إعلان ضد العبودية (إلغاء الرقيق)، وقاد فريدريك دوغلاس (1817-1895) حركة فكرية ضد العبودية تطالب بإلغاء نظام الرق. وساهم كل هذا الجهد الفكري في عقد مؤتمر ضد العبودية في أميركا صدر في نهايته «إعلان 1833» وهو الإعلان الذي أعتمه الرئيس الأميركي أبراهام لينكولن وأصدر بموجبه لاحقاً وثيقة تحرير الرقيق بعد اندلاع الحرب الأهلية في العام 1860. ولكن الواقع الاجتماعي - السياسي كان أقوى من الأفكار وتلك المواد التي نصت عليها الدساتير. أميركا مثلاً احتاجت إلى قرن إضافي حتى توصلت في عهد رئيسها ليندون جونسون إلى إعلان الحقوق المدنية في وثيقة صدرت في العام 1964 ألغت بموجبها التمييز العرقي - اللوني بين البشر ما فتح الطريق القانوني بعد نحو نصف قرن إلى فوز المترشح من أصول إفريقية بمنصب الرئاسة الأميركية.

باراك أوباما لم يدخل البيت الأبيض إلا بعد نضال مرير بدأ منذ استرقاق أول إفريقي وصل إلى أميركا في العام 1502 وانتهاء باغتيال الداعية مارتن لوثر كينغ. وهذا التطور المتواصل انطلق من روافد ثلاثة: وثيقة الحقوق البريطانية، إعلان الاستقلال الأميركي، إعلان حقوق الإنسان الفرنسي. فهذه الأوراق شكلت الأساس المعاصر لتطور مفهوم حقوق الإنسان. فالحقوق ليست مفردة إنشائية جاءت من فراغ وإنما تكونت حجرة فوق حجرة وخطوة بعد خطوة وتبلورت فلسفياً ودستورياً بعد حروب مدمرة أنهكت حياة الملايين من البشر. فالوثائق تعمدت بالدم قبل أن تصاغ بالحبر الأزرق.

عناصرها الفلسفية بناءً على مقولات الحرية والمساواة واستقلال كل شخص. فالحقوق برأيه تتكون من تقييد حرية الآخرين ما دفعه إلى تنظيم العلاقة بين الحاكم والمواطن ضمن شروط صنفها في أطر ثلاثة: حرية كل فرد في المجتمع بوصفه إنساناً، ومساواة كل فرد مع الآخرين بوصفهم رعايا، واستقلال كل فرد في الدولة بوصفه مواطناً. وبناءً على هذه الشروط المتبادلة نجح كانط في وضع قواعد معاصرة للدولة المدنية.

بعد كل هذه التحولات انفتح الفكر الأوروبي وتطور عالمياً وانتقلت المفاهيم من كونها تنظم دستورياً علاقة المواطن بالدولة في النطاق القومي إلى رؤية تنظم علاقة الإنسان بالإنسان في النطاق الكوني. فظهرت إلى جوارها فلسفات مضادة أو محاولات فكرية تريد تصحيح المبالغات التي تطرفت في التفاؤل من دون إدراك للتاريخ والتطور والاختلافات النسبية في نمو الوعي بين دولة وأخرى. وبسبب إعادة قراءة العموميات (المطلقات) في ضوء الاجتماع الإنساني (العمرائي) أخذت تتأسس مدارس وضعية تحذر من المراهات على أفكار صحيحة ولكنها عامة في دلالاتها وإشاراتها ورموزها.

#### مكافحة العبودية

المفكر الفرنسي إلكسس دو توكوفيل (1805-1859) قام بزيارة الولايات المتحدة بعد نحو نصف قرن على استقلالها فلاحظ الفارق الكبير بين الديمقراطية الأميركية الحديثة والديمقراطيات الأوروبية التقليدية فأرسل إشارة تنبيه تحذر من المبالغة في المساواة السياسية لأنها تحتمل إمكانات الارتداد إلى الاستبداد كما حصل في فرنسا في عصر نابليون بونابرت. كذلك طور جون ستيوارت ميل (1806-1873) في فلسفته نظريات العلم السياسي الحديث مؤكداً على أن «الأفراد أحرار في العيش كما يريدون» مطالباً بالحماية من الأذى و«ضمان حقوق البشر» حتى لا تتضارب الحرية بالحياة.

ما أعطى موادها قوة القانون. وبسبب هذه القوة تولدت في الولايات المتحدة حركات فكرية مناهضة للعبودية (تجارة الرقيق) أخذت تطالب بإلغاء نظام الرق الذي ازدهر في أميركا منذ العام 1502. فالقانون الذي ساهم الرئيس الأميركي في صوغ قواعده الاستقلالية - الدستورية أنتج سلسلة حلقات من رجال الدولة (أعضاء كونغرس أو رؤساء) ورجال الصحافة أخذوا على عاتقهم مهمة تحرير السود.

#### الثورة الفرنسية

ثورة الاستقلال الأميركية المعطوفة على وثيقة الحقوق البريطانية أسهمت في توليد قناعات فكرية فرنسية أخذت تتطور تبعاً لتتشكل منها مجموعة بحوث فلسفية ودستورية وأدبية صاغتها أقلام فولتير ومونتسكيو وروسو. جان جاك روسو توفي في العام 1778 بحادث تسمم مشبوه وقبل سنة من اندلاع الثورة الفرنسية. إلا أن تأثيراته الفلسفية على فكر الثورة الفرنسية كانت قوية إذ استمدت بعض مقولاتها من كتابه الشهير «العقد الاجتماعي». فالعقد بين الدولة والمجتمع صاغه روسو على أساس القانون (كل دولة تدار بقوانين مهما كان شكل إدارتها) والمصلحة العامة / المشتركة وحق الشعب في اختيار دستوره (يجب أن يكون الشعب الخاضع للقوانين واضعاً لها).

الثورة الفرنسية تشكل الرافد الثالث لمنظومة «حقوق الإنسان». فالثورة صاغت دستورها المدني وأطلقت وثيقة مدنية (الإعلان الفرنسي) في نوفمبر / تشرين الثاني العام 1789 وهي اشتهرت لاحقاً بوثيقة حقوق الإنسان. ولعبت الوثيقة دورها في التأثير على وعي النخبة الألمانية إذ أخذت تلك الشريحة من الفلاسفة تنتبه إلى مكونات نظرية الحقوق التي صاغتها الوثائق الثلاث البريطانية والأميركية والفرنسية. ولم يتأخر الوقت حتى ظهرت فلسفة ألمانية رائدة في زمانها قادها أمانويل كانط (1724-1804).

كانط يعتبر المؤسس الحديث لنظرية الحقوق إذ نجح في تكوين

◀ وعندما نقول إن لكل شخص حقوقاً إنسانية، فإننا نقول، كذلك، إن على كل شخص مسؤوليات نحو احترام الحقوق الإنسانية للآخرين.

◀ حقوق الإنسان هي أحقية كل الناس في ظروف أساسية تدعم جهودهم للعيش بكرامة، وفي سلام، ولإنماء قدراتهم الكامنة كبشر إلى أقصى

قدر ممكن.